الفصل الثالث

السنة في صدر الإسلام

وفيه

المبحث الأول: السنة في عهد الرسول ﷺ.

المبحث الثاني: السنة في عصر الصحابة والتابعين.

المبحث الثالث: النشاط العلمي في عصر الصحابة والتابعين.

المبحث الرابع: الرحلة في طلب الحديث.

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول

السنة في العهد النبوي

آ ـ قضى الرسول ﷺ ثلاثة وعشرين عاماً يدعو إلى الإسلام، ويبلغ أحكامه وتعاليمه، حتى دانت الجزيرة العربية وأطرافها لهذا الدين الحنيف، وقد كانت تلك الفترة مرحلة تعليمية تطبيقية، وأساساً متيناً لبنيان الحضارة الإسلامية الشامخ، الذي غير وجه التاريخ، وأمده بذخيرة حضارية في مختلف نواحي الحياة.

وكانت مهمة الرسول ﷺ مهمة شاقة لا يضطلع بها إلا أولو العزم من الرسل، فاندفع الرسول ﷺ من صميم فؤاده، وبجميع قواه في سبيل تبليغ الرسالة، حتى رست دعائم الإسلام في المدينة المنورة، وقامت دولته، فكان المعلم المربي، والقائد الموجه، والرئيس المشارك، محبًّا لأصحابه يشاطرهم آلامهم وأفراحهم، في السراء والضراء، فكان خير من يُقتدى به، ويهتدى بسيرته، فتأسى به الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، الذين خالطوه، ورأوه وسمعوا منه، وعرفوا عنه دقيق الأمور وجليلها، وكل ذلك سنة، فنقلوه إلينا بدقة وإخلاص.

* * *

ب ـ وكان لمنهج الرسول ﷺ أثر بعيد في تعليم أصحابه وحفظ سنته، فقد دعا الإسلام إلى التعلم، ورفع منزلة العلماء، وحض على طلب العلم، فإن أول ما نزل به الوحي على الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ باسمِ ربِّكَ

الذي خَلَقَ . . . ﴾[1] والقراءة مفتاح العلم.

وكذلك شجع الرسول ﷺ على طلب العلم ورفع من شأنه، ففي حضه على طلب العلم قال: «طلب العلم فريضةٌ على كل مسلم»[2] وقال: «من يردِ الله به خيراً يفقِّهْهُ في الدين»[3].

وحض على تبليغ العلم كما في قوله صلى الله عليه وسلم «نَضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه، فَرُبَّ مبلغٍ أحفظ له من سامع»[4].

ورفع منزلة العلماء فقال ﷺ: «العلماء ورثةُ الأنبياء»[5]، وحث على احترامهم في قوله: «ليس من أمتي من لم يجلَّ كبيرنا، ويرحمْ صغيرنا، ويعرفْ لعالمنا حقَّهُ»[6].

وبين أجر طلاب العلم ومنزلتهم في قوله ﷺ: «من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً أو يعلمه، كان له كأجر حاجٍّ تامًّا حَجَّتُهُ»[7].

وأوصى بطلاب العلم خيراً بقوله ﷺ: «وإنه سيأتي بعدي قومٌ يسألونكم الحديث عني، فإذا جاؤوكم فالطفوا بهم، وحدثوهم»[8]، وفي رواية: «فاستَوْصُوا بهم خيراً»[9].

---

(١) ١ : القلم

(٢) أخرجه ابن ماجة في «سننه» ص ٥ جـ ١.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» ص ١٨٠ حديث ٧١٩٣ جـ ١٢.

(٤) المرجع السابق ص ٩٦ حديث ٤١٥٧ جـ ٦.

(٥) «مجمع الزوائد» ص ١٢١ جـ ١.

(٦) المرجع السابق ص ١٢٧ جـ ١.

(٧) «مجمع الزوائد» ص ١٢٣ جـ ١.

(٨) «شرف أصحاب الحديث» ص ٧٢: آ.

(٩) «سنن» ابن ماجه ٥٧/ ١.

ومن أبرز ما تميز به منهج النبي ﷺ في تعليم أصحابه ثمانية أسس لها أثرها التربوي والتعليمي، وهي:

١ ـ التدرج في التعليم.
٢ ـ تعدد ميادين التعليم وتنوعها.
٣ ـ حسن التربية والتعليم.
٤ ـ التنويع والتغيير في الأسلوب والموضوع.
٥ ـ التطبيق العلمي.
٦ ـ مراعاة المستويات المختلفة والفروق الفردية واللغوية والزمانية والمكانية.
٧ ـ التيسير وعدم التشديد.
٨ ـ منهجه في التعليم عام شامل، تناول تعليم الكبار والصغار والرجال والنساء.

ومؤيدات هذه الأسس كثيرة، وشواهدها لا تحصى، فصلت القول فيها في موضع آخر[1].

* * *

جـ ـ وقد تلقى الصحابة السنة عن الرسول ﷺ من عدة طرق ووجوه، نوجزها فيما يلي:

١ ـ مجالس الرسول ﷺ التي كان يعقدها في المسجد عقب الصلوات، وفي أوقات أخرى خصصها لأصحابه، فقد كان الصحابة شديدي الحرص على حضور هذه المجالس، والمحافظة عليها، حتى إن عمر رضي الله عنه

(١) انظر كتابي «السنة قبل التدوين» ص ٣٨ وما بعدها. و «الوجيز في علوم الحديث» ص ٥٧ ـ ٦٤.

كان وجار له من الأنصار ـ في عوالي المدينة ـ يتناوبان النزول على رسول الله ﷺ، ينزل كل واحد منهما يوماً، فإذا نزل رجع بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره إلى صاحبه[1] حتى لا تضيع عليهما فائدة، ولا تفوتهم رعاية مصالحهم المعاشية.

٢ ـ حوادث تقع للرسول نفسه، فيبين حكمها للناس، وينتشر هذا الحكم.

٣ ـ حوادث تقع للمسلمين، فيسألون الرسول ﷺ عنها، فيفتيهم ويبين لهم الأحكام، فإن كانت عامة جمع الناس وبينها، وإن كانت خاصة أو شخصية، وفىَّ صاحبها حاجته، وروى ظمأه العلمي... وكل ذلك سنة.

٤ ـ وقائع وحوادث ومشاهد رأى فيها الصحابة رضوان الله تعالى عنهم أجمعين تصرفات الرسول ﷺ في صلاته، وصيامه، وحجه، وسفره، وإقامته، وقيامه، وقعوده، ودخوله، وخروجه، في سلمه وحربه، فنقلوها إلى التابعين الذين بلغوها إلى من بعدهم، وهي كثيرة جدًّا، وتشكل جانباً كبيراً من السنة، وخاصة هديه ﷺ في العبادات والمعاملات وسيرته.

ونستطيع أن نقول ـ بكل ثقة واطمئنان ـ : إن السنة في عهد الرسول ﷺ قد حُفظت عند الصحابة جنباً إلى جنب مع القرآن الكريم، وإن كان نصيب كل صحابي منها يختلف عن نصيب الآخر، بين مكثر من حفظها، ومتوسط، ومقل، ومع هذا فقد أحاطوا بالسنة وحفظوها على أحسن وجه، وتكفلوا بنقلها إلى التابعين.

★★★

(١) انظر «فتح الباري» ص ١٩٥ جـ ١.

د ـ انتشار الحديث في عهد الرسول ﷺ: هيأ الله تعالى لهذا الدين عوامل قوية لانتشاره زمن الرسول ﷺ في الجزيرة العربية خاصة وخارجها عامة، وأهم هذه العوامل[1]:

١ ـ نشاط الرسول ﷺ.
٢ ـ طبيعة الإسلام ونظامه الجديد.
٣ ـ نشاط أصحاب الرسول ﷺ.
٤ ـ أمهات المؤمنين رضي الله عنهن ودورهن في نشر السنة وبيانها.
٥ ـ الصحابيات.
٦ ـ صلح الحُدَيْبِيَة، وأثره في نشر السنة.
٧ ـ رسل الرسول ﷺ وبعوثه إلى الآفاق، وأثر ولاته في نشر السنة.
٨ ـ غزوة الفتح.
٩ ـ حجة الوداع.
١٠ ـ الوفود بعد الفتح الأعظم وحجة الوداع.

تلك عوامل هامة، ومشاهد عامرة برجالها، ووقائع متعددة التقى فيها آلاف المسلمين، كان لها أثرها البعيد في معرفة أحكام الإسلام، والإفادة من الرسول ﷺ، إلى جانب العوامل الأخرى التي ذكرتها، تؤكد كفايتها لنشر السنة، وتبليغها المسلمين في مختلف أرجاء الدولة الإسلامية آنذاك، وتعرف بالإسلام في البلاد المجاورة للجزيرة العربية.

---

(١) انظر كتابنا «الإعلام في صدر الإسلام».

obeikandl.com

المبحث الثاني

السنة في عصر الصحابة والتابعين

آ ـ محافظة الصحابة والتابعين على السنة وتأسيهم بالرسول ﷺ

كان الرسول ﷺ مرجع الأمة في جميع أمورها، ولما انتقل إلى الرفيق الأعلى انقطع الوحي، ولم يبق أمام الأمة إلا القرآن الكريم المحفوظ في الصدور وعلى الرقاع، والسنة الشريفة، مصداقاً لقول الرسول ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنتي».

وأحسن الصحابة والتابعون التمسك بسنة الرسول ﷺ والمحافظة عليها والعمل بها، استجابة لأوامر الله عز وجل، وطاعة للرسول ﷺ، وحققوا عمليًّا قول الله عز وجل: ﴿لقَدْ كانَ لكُم في رسولِ اللهِ أُسوةٌ حسنةٌ لِمَنْ كانَ يرجُو اللهَ واليومَ الآخِرَ وذكرَ اللهَ كثيراً﴾[1]. فساروا على هديه، وأخذوا بسنته ﷺ.

١ ـ فبعد وفاة الرسول ﷺ يعقد أبو بكر لواء أسامة بن زيد، ويأبى أن يحتفظ بجيشه وهو في أشد الحاجة إليه، ويقول:

ما كان لي أن أحل لواءاً عقده رسول الله ﷺ، ويعقد اللواء لخالد بن الوليد ليقاتل المرتدين، ويقول: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نعمَ عبدُ الله وأخو العشيرة خالدُ بن الوليد، وسيفٌ من سيوف الله عز وجل على الكفار

---

(١) ٢١ : الأحزاب.

والمنافقين»[1].

٢ ـ كان رسول الله ﷺ قد أمر الصحابة ومن معه يوم الفتح بأن يكشفوا عن مناكبهم، ويهرولوا في الطواف، ليرى المشركون قوتهم وجلدهم، وقويت دولة الإسلام، وزال المشركون، ورأى عمر رضي الله عنه أن هذا الأمر قد ذهبت علته، ولكنه قال: «فيمَ الرملانُ الآن والكشفُ عن المناكب، وقد أَطَأَ الله الإسلام ونفى الكفر وأهله؟! **ومع ذلك لا ندع شيئاً كنا نفعله على عهد رسول الله ﷺ**»[2].

٣ ـ وهكذا كان جميع الصحابة يتأسون بالرسول ﷺ، ويحافظون على سنته سواء أعرفوا علة ذلك أم لم يعرفوا، وسواء أتوقعوا حكمة لما يفعلون أم لم يتوقعوا، فإذا ثبت عن الرسول ﷺ شيء لم يدعوه، فعن مجاهد قال: كنا مع ابن عمر في سفر، فمر بمكان، فحاد عنه، فسُئِل لمَ فعلت؟ فقال: رأيت رسول الله ﷺ فعل هذا ففعلت[3].

٤ ـ وعن الزبير بن عربي قال: سمعت رجلاً يسألُ ابن عمر عن الحجر، قال: رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويقبله. فقال الرجل: أرأيت إن زُحِمت؟ فقال ابن عمر: اجعل أرأيت باليمن، رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويقبله[4]. يريد أنه لا مجال للرأي إذا ثبتت سنة عن الرسول ﷺ، بدِلالة رواية أخرى: اجعل أرأيتَ مع هذا الكوكب[5].

---

(١) «مسند» الإمام أحمد ص ١٧٣ جـ ١.

(٢) «مسند» الإمام أحمد ص ٢٩٣ حديث ٣١٧ جـ ١. أطأ: ثبت وأرسى، والهمزة فيه بدل واو (وطأ).

(٣) «مسند» الإمام أحمد ص ٥٤ حديث. ٤٨٧ جـ ٧.

(٤) المرجع السابق ص ١٩٤ جـ ٩.

(٥) وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه طاف بالبيت، واستلم الركن بمحجن ـ وهي عصا =

وعلى هذا النهج من التمسك بالسنة سار التابعون وأهل العلم من بعدهم، واشتهر قول الإمام مالك رحمه الله: «كلٌّ يُؤخذ من قوله ويردُّ إلا صاحب هذه الحجرة» يعني: الرسول ﷺ.

* * *

ب ـ منهج الصحابة والتابعين في المحافظة على السنة

يتميز منهج الصحابة والتابعين في المحافظة على السنة بأمرين أساسيين:

١ـ احتياطهم في رواية الحديث: احتاط الصحابة والتابعون في رواية الحديث عن الرسول ﷺ، خشية الوقوع في الخطأ، فاجتهدوا في اتباع السبل التي تحفظ على الحديث نوره، وتكفل نقله كما سمعوه، فحملهم ورعهم وتقواهم على الاعتدال في الرواية، وآثر بعضهم الإقلال منها احتراماً لحديث الرسول ﷺ، لا زهداً فيه، وكان عمر رضي الله عنه ينكر على من يكثر رواية الحديث دون حاجة، لأن كثرة الرواية مظنَّةُ الوقوع في الخطأ، والتزم الصحابة هذا المنهج، **فلم يرووا الأحاديث إلا حين الحاجة**، وكانوا في روايتهم يتحرون الدقة، ويحتاطون، وكثيراً ما كان يقول بعضهم بعد رواية الحديث: (نحو هذا، أو كما قال، أو شبيهاً بذلك)[1].

حتى إن بعضهم تأخذه الرعدة، ويقشعر جلده، ويتغير لونه حين يروي شيئاً عن الرسول ﷺ، ورعاً واحتراماً لحديثه عليه الصلاة والسلام.

= صغيرة ـ معه، ويقبل المحجن، رواه الإمام مسلم، وانظر «سبل السلام» ص ٢٠٥ جـ ٢ حديث ١٠ و ص ٢٠٦ جـ ٢ حديث ١١.

(١) انظر أمثلة لهذا في «سنن» ابن ماجه ص ٨ جـ ١، و «مسند» الإمام أحمد ص ٤٦ جـ ٦، و «سنن» الدارمي ص ٧٧ و ٨٤ جـ ١، و «سنن» البيهقي ص ١١ جـ ١، و «الجامع لأخلاق الراوي» ف ١٠٢٠ وما بعدها.

قال عبد الرحمن بن أبي ليلى: «أدركت مئة وعشرين من الأنصار من أصحاب محمد ﷺ، ما منهم أحد يحدث بحديث إلّا وَدَّ أن أخاه كفاه إياه، ولا يُستفتى عن شيء إلا وَدَّ أنَّ أخاه كفاه إياه» وفي رواية: «يُسأل أحدهم المسألة فيردُّها هذا إلى هذا، حتى ترجع إلى الأول»(١).

ولم ينهج الصحابة هذا السبيل لقلة ما لديهم من الحديث، بل فعلوا ذلك كله حرصاً على السنة، وصيانة لها، واحتياطاً للدين، ورعاية لمصلحة المسلمين، لا زهداً في الحديث النبوي، ولا تعطيلاً له، وقد ثبت عن الصحابة جميعاً تمسكهم بالحديث الشريف، وإجلالهم إياه، وأخذهم به، وقد تواتر خبر اجتهاد الصحابة إذا وقعت لهم حادثة شرعية من حلالٍ أو حرامٍ، وفزعهم إلى كتاب الله تعالى، فإن وجدوا فيه ما يريدون تمسكوا به، وأجروا (حكم الحادثة) على مقتضاه، وإن لم يجدوا ما يطلبون فزعوا إلى السنة، فإن روي لهم خبر أخذوا به، ونزلوا على حكمه، وإن لم يجدوا الخبر فزعوا إلى الاجتهاد بالرأي(٢).

كما أنهم لم يكثروا من الرواية مخافة رفع التدبر والتفقه، فالتزموا الاعتدال فيها، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ليس العلمُ كثرة الحديث، ولكنَّ العلمَ الخشيةُ»(٣).

وعلى منهج الصحابة سار التابعون ومن بعدهم، فاحتاطوا في رواية

---

(١) مختصر كتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول» ص ١٣، وانظر كتاب «العلم» لزهير بن حرب ص ١٧٧: آ.

(٢) انظر «الملل والنحل» للشهرستاني ص ٤٤٦ ـ ٤٤٧، و «إعلام الموقعين» ص ٦٢ جـ ١.

(٣) «مختصر كتاب المؤمل في الرد إلى الأمر الأول» ص ٦.

الحديث، وأمروا بذلك، قال محمد بن المُنْكَدِر: «الذي يحدثُ الناسَ إنما يدخل بين الله وبين عباده، فلينظر بما يدخل»[1].

وكان بعضهم لا يحدث في مجلسه بأكثر من ثلاثة أحاديث أو أربعة، كي يفهمها الطلاب ويحفظوها، ويحسنوا تدبرها، ويقفوا على ما فيها، والأخبار في هذا كثيرة[2].

٢ـ تثبت الصحابة والتابعين في قبول الحديث.

كما احتاط الصحابة والتابعون وأهل العلم من بعدهم في رواية الحديث، احتاطوا وتثبتوا في قبول الأخبار عن رسول الله ﷺ، واجتهدوا في التثبت بكل وسيلة تضمن لهم معرفة صحة المروي وضبط ناقله، بطلب الحديث من راو آخر، وجمع طرقه تارة، وبالرجوع إلى أئمة هذا الشأن تارة أخرى.

١ ـ قال الإمام الذَّهبيّ: كان أبو بكر رضي الله عنه أول من احتاط في قبول الأخبار، فروى ابن شهاب عن قَبيصةَ بن ذُؤيب أن الجدة جاءت إلى أبي بكر تلتمسُ أن تُوَرَّثَ، فقال: ما أجدُ لك في كتاب الله شيئاً، وما علمتُ أن رسول الله ﷺ ذكر لك شيئاً، ثم سأل الناس، فقام المغيرةُ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يعطيها السُّدُس، فقال له: هل معك أحدٌ؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك، فأنفذه أبو بكر رضي الله عنه[3].

---

(١) «الكفاية» ص ١٦٨.

(٢) انظر «المحدث الفاصل» فقرة (٨١٩ ـ ٨٢١) و «جامع بيان العلم وفضله» ص ١٣٠ جـ ٢، و «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» ف ٣٧٥ وما بعدها و ف ٤٤٨ ـ ٤٥٦ و «السنة قبل التدوين» ص ١١٠ ـ ١١١.

(٣) «تذكرة الحفاظ» ص ٣ جـ ١، وأخرجه مالك في «الموطأ» ص ٥١٣ جـ ٢ وأبو داوود، والترمذي، وابن ماجه.

٢ ـ ولما استأذن أبو موسى رضي الله عنه على سيدنا عمر ثلاثاً ثم انصرف، قال له عمر: ما الذي منعك؟ قال: استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت، وقال رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدُكم ثلاثاً فلم يُؤذن له فليرجعْ» قال عمر رضي الله عنه: والله لتقيمن عليه بينة. فذهب ورجع ومعه أبو سعيد الخُدري، فأخبر عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال ذلك(١). فقال عمر لأبي موسى رضي الله عنهما: أما إني لم أتهمْك، ولكن خشيتُ أن يتقول الناس على رسول الله ﷺ(٢).

٣ ـ لقد كانوا يستوثقون لما يسمعون بما تطمئن له قلوبهم، فعن علي رضي الله عنه قال: كنت إذا سمعتُ من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله بما شاء منه، وإذا حدثني غيره استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وإن أبا بكر حدثني، وصدق أبو بكر، أنه سمع النبي ﷺ قال: «ما من رجلٍ يذنبُ ذنباً فيتوضأ، فيحسن الوضوء، ويصلي ركعتين، فيستغفرُ الله عز وجل إلا غفر له»(٣).

تلك الآثار لا تعني أن الصحابة اشترطوا لقبول الحديث أن يرويه راويان فأكثر، أو أن يشهد الناس على الراوي، أو أن يستحلف، فإذا لم يحصل شيء من هذا رُدَّ خبره، بل كانوا يتثبتون في قبول الأخبار، ويتبعون الأسلوب الذي ترتاح إليه ضمائرهم، وتطمئن له قلوبهم، وما ذكرناه مظهر من مظاهر التثبت

---

(١) انظر «صحيح» البخاري بحاشية السندي ص ٨٨ جـ ٤، وانظر «صحيح» مسلم ص ١٦٩٤ جـ ٣ و «موطأ» مالك ص ٩٦٤ جـ ٢، و «الرسالة» للشافعي ص ٤٣٥.

(٢) «الموطأ» ص ٩٦٤ جـ ٢، و «الرسالة» ص ٤٣٥.

(٣) «مسند» أحمد ص ١٥٤ و ١٧٤ و ١٧٨ جـ ١، وانظر «سنن» الترمذي ص ٢٥٧ جـ ٢.

والاستيثاق، مخافة الخطأ في الرواية، وحرصاً على الضبط والاتقان حين التحديث.

فأحياناً يطلب عمر رضي الله عنه سماع آخر، وأحياناً يقبل الخبر من غير ذلك، ولا يقصد من وراء عمله إلا حمل المسلمين على جادة التثبت العلمي، وواضح هذا في مقالة عمر رضي الله عنه لأبي موسى بعد أن جاءه بأبي سعيد الخُدري. وبين الإمام الذهبي، بعد إيراد طريقة الصديق رضي الله عنه في التثبت، قال: «إن مراد الصديق التثبت في الأخبار والتحري، لا سدَّ باب الرواية»[1].

وكما طلب الصحابة من الراوي شهادة غيره أحياناً، أو سماعاً من غيره، قبلوا أحاديث كثيرة برواية الآحاد أحياناً أخرى، لاطمئنانهم وثقتهم بضبط الناقلين، وبنوا عليها أحكامهم.

وكذلك اجتهد التابعون ومَنْ بعدهم في التثبت لصحة وضبط ما يروى، وحضوا أبناءهم وطلابهم على السماع من الثقات، من هذا أن عقبة بن نافع الفِهْريّ أوصى بنيه فقال: «يا بَنيَّ لا تقبلوا الحديث عن رسول الله ﷺ إلا من ثقة»[2].

وكانوا يرون الأمانة في الذهب والفضة أيسر من الأمانة في الحديث[3]، وكان يزيد بن حبيب محدث الديار المصرية يقول: «إذا سمعت الحديث فانشده كما تنشدُ الضالة، فإن عرف فخذه وإلا فدعه»[4].

---

(١) «تذكرة الحفاظ» ص ٦ - ٧ جـ ١.

(٢) «الجرح والتعديل» ص ٢٩ قسم ١ جـ ١.

(٣) انظر «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» فقرة (١٦٦٥ و ١٦٧٥).

(٤) «الجرح والتعديل» ص ١٩ جـ ١.

وكثيراً ما كانت تتردد على ألسنة التابعين ومن بعدهم هذه العبارة: «إن هذا العلم دينٌ فانظروا عمّن تأخذون دينَكم»[1].

(١) «المحدث الفاصل بين الراوي والواعي» فقرة (٤٢٠).

obeikandl.com

المبحث الثالث

النشاط العلمي في عهد الصحابة والتابعين

إن الجو العلمي الذي أحاط بالمسلمين زمن الرسول ﷺ لم ينحسر بعد وفاته ﷺ، ولم يَفْتر نشاط الصحابة عما كانوا عليه، بل تضاعف جدهم ونشاطهم، لشعورهم بالمسؤولية العظيمة الملقاة على عواتقهم لحفظ مصادر الدين، وإقامة أحكامه، فسارعوا بعد حروب الردة إلى جمع القرآن الكريم، خشية ضياعه من صدور القراء (الحفاظ) باستشهادهم في عهد أبي بكر، ثم نسخوه في مصاحف، وزعت على الأقاليم الإسلامية في عهد عثمان، خوفاً من عاقبة الاختلاف في القراءات في الأمصار المختلفة.

وكان الصحابة يتدارسون حديث رسول الله ﷺ فيما بينهم، ويروي بعضهم عن بعض، ويسأل بعضهم بعضاً.

لما قبض رسول الله ﷺ قال عبد الله بن عباس لرجل من الأنصار: هلمَّ فلْنسأل أصحاب رسول الله، فإنهم اليوم كثير. قال: واعجباً يا ابن عباس، أترى الناس يفتقرون إليك، وفي الناس من أصحاب رسول الله من فيهم؟! قال ابن عباس: فترك ذاك، وأقبلت أنا أسألُ أصحابَ رسول الله عن الحديث، فإنه كان يبلغني الحديث عن الرجل فآتي بابه وهو قائل[1]، فأتوسَّدُ ردائي على بابه، تسفي الريحُ عليَّ التراب، فيخرج، فيقول: يا ابن عم

---

(١) أي وهو في نوم الظهيرة، من القيلولة والقائلة.

رسول الله ما جاء بك؟ ألا أرسلت إليَّ فآتيك؟ فأقول: أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث[1].

وأخبار الصحابة والتابعين في هذا الباب كثيرة[2]، ولم يكتفوا بدراسة الحديث فيما بينهم، بل حثوا على طلبه وحفظه، وحضّوا التابعين على مجالسة أهل العلم والأخذ عنهم، ولم يتركوا وسيلة في سبيل ذلك إلا أفادوا منها، من هذا قول عمر رضي الله عنه: «تفَقَّهوا قبل أن تسودوا»[3]، وقوله: «تعلموا الفرائضَ والسنة كما تتعلمون القرآن»[4].

ومن الأمثلة التي تدل على حرصهم على تبليغ الحق، ونشر سنة رسول الله ﷺ قول أبي ذرٍّ رضي الله عنه: «لو وضعتم الصمصامة ـ السيف الصارم ـ على هذه ـ وأشار إلى قفاه ـ ثم ظننتُ أني أنفذ كلمةً سمعتها من النبي ﷺ قبل أن تجيزوا علي لأنفذتها»[5].

ومن أقوالهم في الحث على طلب العلم، قول ابن مسعود رضي الله عنه: «عليكم بالعلم قبل أن يُقبض، وقبضُه ذهابُ أهله»[6]، وعن رجاء بن حَيْوة عن أبي الدَّرْداء قال: «العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم، ومن يتحرَّ الخير يُعطه، ومن يتوَقَّ الشرَّ يُوقه»[7].

---

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» ف ٢١٩.

(٢) انظر «الوجيز» ص ٩١ ـ ٩٣.

(٣) «فتح الباري» ص ١٧٥ جـ ١.

(٤) «جامع بيان العلم وفضله» ص ٣٤ جـ ٢.

(٥) «فتح الباري» ص ١٧٠ جـ ١.

(٦) «مجمع الزوائد» ص ١٢٥ جـ ١.

(٧) كتاب «العلم» لزهير بن حرب ورقة ١٩٣: آ.

وحثوا على اتباع السنة، وترك البدع، من هذا قول ابن مسعود رضي الله عنه: «الاقتصادُ في السنة أفضل من الاجتهاد في البدعة»[1].

واهتموابالناشئة، وحثوا على تعليمهم، وشجعوهم واستوصوا بهم خيراً، وأحسنوا رعايتهم، وكانوا يحضونهم على تبليغ ما يتعلمون، ومذاكرة ما يتلقون، وما أبلغ قول علي رضي الله عنه في هذا: «تزاوروا وتذاكروا الحديث، فإنكم إلّا تفعلوا يَدْرُسْ»[2].

وسار التابعون على نهج الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وجَدَّ طلاب العلم في طلبه، وأقبلوا عليه إقبالاً لم يشهدِ التاريخُ ـ من قبل ـ له مثيلاً، وكثر طلاب العلم كثرةً تثلج لها الصدور، وتستريح بها النفوس، حتى إن أحد الصحابة كان يحدث الناس، فيكثرون عليه، فيصعد فوق بيت ويحدثهم[3]، وقد بلغ طلاب الحديث في الكوفة قبل سنة (٨٠) أربعة آلاف طالب، وأربع مئة قد فقهوا[4]!!

وكانت حلقات العلم تعقد في جميع البلدان الإسلامية، فقد غَصَّ المسجد الحرام في عهد عبد الملك بن مروان بطلاب العلم، فكانت حلقاته لا تحصى، تضم أبناء المسلمين، وكان من شيوخها آنذاك عطاء، وسعيد بن جُبَيْر، وميمون بن مِهْران، ومكحول، ومجاهد، وغيرهم[5]، وكانت حلقات

---

(١) «تذكرة الحفاظ» ص ١٥ جـ ١.

(٢) «شرف أصحاب الحديث» ص ٩٩، و «معرفة علوم الحديث» ص ٦٠ و ١٤١، و «الجامع لأخلاق الراوي» ف ٤٦٦ و ٤٦٧.

(٣) انظر «المحدث الفاصل» ف ٨١٠.

(٤) انظر المرجع السابق ص ٨١: آ و ١٣٥: ب.

(٥) «المحدث الفاصل» ف ٨١٠.

المسجد النبوي في المدينة كالرياض يختار الطالب منها ما يشاء[1]، وضمت حلقات أبي الدَّرداء رضي الله عنه في مسجد دمشق نيفاً وخمس مئة طالب[2]، إلى جانب حلقات غيره من شيوخ دمشق.

وتألقت مراكز التعليم في مشارق الدولة الإسلامية ومغاربها قبل نهاية القرن الهجري الأول، فقد كان صحابة رسول الله ﷺ في طليعة الجيوش الإسلامية، كانوا كلما دخلوا بلداً أقاموا فيه المساجد[3]، ومكث فيه بعض الصحابة والتابعين، يدبرون أموره، وينشرون فيه الإسلام، ويعلمون أبناءه القرآن والسنة، وكان الخلفاء يمدون البلاد الجديدة بالعلماء، وقد استوطن كثير من الصحابة والتابعين في تلك الأمصار، يرشدون أهلها، ويعلمون أبناءها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، والتفّوا حول أصحاب رسول الله ﷺ، وحول علماء التابعين، ينهلون من ينابيع العلم، وتخرج في تلك الحلقات علماء التابعين وأتباعهم ممن حمل لواء العلم بعدهم، وحفظ السنة، وعمل على نشرها وتعليمها[4].

---

(١) انظر «المحدث الفاصل» ف ٧٦٣.

(٢) انظر «التاريخ الكبير» لابن عساكر ص ٦٩ جـ ١.

(٣) انظر «الخطط» للمَقْريزيّ ص ٢٤٦ جـ ٢.

(٤) انظر «الوجيز» ص ١٠٨ - ١١٨.

المبحث الرابع

الرحلة في طلب الحديث

الرحلة في طلب العلم أمر يتميز به المسلمون، وبخاصة طلاب الحديث، وقد عرفت الرحلة من أجل معرفة أمر الدين منذ عهد الرسول ﷺ، وتمت رحلات كثيرة في عهد الصحابة والتابعين في طلب الحديث خاصة، يقول أبو العالية الرِّياحيّ: «كنا نسمع الرواية عن أصحاب رسول الله ﷺ بالبَصرة، فلم نرض حتى ركبنا إلى المدينة، فسمعناها من أفواههم»[1].

وكثيراً ما كانوا يقطعون المسافات الطويلة لسماع حديث، أو للتأكد من حديث وضبطه، أو للقاء صحابي والأخذ عنه، ثم رحل أتباع التابعين إلى علماء التابعين، والتقوا بهم، وتحملوا عنهم، وسمعوا منهم، ورحل من جاء بعدهم إلى أئمة أتباع التابعين، وهكذا اتسعت الرحلة في طلب الحديث، وكثرت في مختلف آفاق الدولة الإسلامية، فيكفي أن ينزل صحابي في بلد حتى يتقاطر طلاب العلم من الآفاق إليه، ويلتفون حوله، ومثل هذا يقال فيمن جاء بعد الصحابة من العلماء، حتى تم جمع الحديث في مراجعه الكبرى، ومع هذا لم تنقطع رحلة العلماء في سبيل المذاكرة والعرض على الشيوخ المشهورين.

---

(١) «الجامع لأخلاق الراوي» فقرة (١٧٤٠) و «الكفاية» ص ٤٠٢.

وقد رحل أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه إلى عُقبة بن عامر رضي الله عنه في مصر ليتأكد من حديث كان قد سمعه معه من رسول الله ﷺ[1].

ورحل جابر بن عبد الله رضي الله عنه من الحجاز إلى بلاد الشام شهراً، لسماع حديث من بعض أصحاب رسول الله ﷺ[2].

وخرج الإمام عامر الشَّعْبِيّ في ثلاثة أحاديث ذكرت له[3].

وعن سعيد بن المُسَيِّب قال: إن كنت لأسير ثلاثاً في الحديث الواحد[4].

وحدث الشعبي بحديث ثم قال لمن حَدَّثه: «أعطيتَكَهُ بغير شيء، وإن كان الراكبُ ليركب إلى المدينة فيما دونه»[5].

وقد شجع الصحابة رضي الله عنهم على الرحلة في طلب العلم، من هذا قول عبد الله بن مسعود: «لو أعلمُ أحداً أعلَمَ بكتاب الله تعالى مني تبلغه الإبلُ لأتيتُه»[6].

وقال الشعبي: (لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن، ليسمع كلمة حكمة، ما رأيت أن سفره ضاع)[7].

وأخبار رحلات أهل الحديث من إقليم إلى إقليم كثيرة جدًّا، وأما أخبار

---

(١) انظر «فتح الباري» ص ١٥٩ جـ ١.
(٢) انظر «الأدب المفرد» ص ٣٣٧، و «الجامع لأخلاق الراوي» ف ١٧٤٢.
(٣) انظر «المحدث الفاصل» ف ١١٥.
(٤) انظر «المحدث الفاصل» ف ١١١ و «جامع بيان العلم» ص ٩٤ جـ ١.
(٥) انظر «جامع بيان العلم وفضله» ص ٩٤ جـ ١.
(٦) «الكفاية» ص ٤٠٢.
(٧) «جامع بيان العلم» ص ٩٥ جـ ١.

رحلاتهم ورحلات العلماء من بلد إلى آخر في الإقليم الواحد فإنها تفوق الحصر[1].

أهم فوائد الرحلة:

كان لرحلات العلماء وطلاب العلم فوائد كثيرة منها:

١ ـ لقاء الشيوخ ومجالستهم والإفادة منهم.

٢ ـ جمع الحديث وتمحيصه والتثبت فيه.

٣ ـ جمع طرق كثيرة للحديث الواحد، فقد يسمع الراوي من علماء المصر الذي رحل إليه زيادات لم يسمعها من علماء مصره، وكثيراً ما يجد عندهم ما لم يجده عند شيوخه.

٤ ـ تمييز الصحيح من غيره بما يدور من مناظرات بين علماء الحديث، تعارض فيها طرق الحديث، فيحصل فيها القوي، ويعرف الضعيف.

٥ ـ تحصيل الأسانيد العالية، وبَين هذا في قول أبي العالية الرِّياحِيّ.

٦ ـ تساعد الرحلة في طلب الحديث على معرفة الحديث الفرد، والغريب[2]. من غيرهما، ومعرفة الغرائب والمناكير[3].

٧ ـ تقوي الصلات بين طلاب العلم وشيوخهم.

---

(١) انظر «المحدث الفاصل» ف ١٢٥ ـ ١٢٩ و «جامع بيان العلم» ص ٩٤ و ٩٥ جـ ١.

(٢) انظر فصل (المشترك بين الصحيح والحسن والضعيف من هذا الكتاب).

(٣) انظر فصل (الجرح والتعديل: مراتب الجرح) وفصل (الحديث الضعيف) من هذا الكتاب.

إلى جوانب فوائد أخرى لا تغيب عن أهل العلم، فلم يصلنا الحديث النبوي في مصنفاته وأمهات كتبه، مرتباً بأسانيده، وعلى أبواب جامعة لموضوعاته، وغير ذلك إلا بعد أن خدمه الصحابة والتابعون، وأتباعهم، والعلماء من بعدهم، ووقفوا عليه حياتهم، فجزاهم الله عنا خير الجزاء.

obeikandl.com